Arab Journal of Sciences and Research Publishing
Volume (7), Issue (1): 30 Mar 2021
P: 1 - 17

AJSRP
ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم ونشـر الأبحـاث
المجلد (7)، العدد (1): 30 مارس 2021 م
ص: 1 - 17

Trends of criticism between the two caliphs: Omar bin Alkhatab and Abdulmalek bin Marwan: A comparative study of environment effect

Awadh Ahmed Hasan

Faculty of education || Aden University || Yemen

Abstract: The study depended to highlight the affection of the environment in the criticism of the two caliphs; Omer bin Al-Khatab and Abdul-Malik bin Marwan, both caliphs depended on the self-rule based on instinct and own view, as their judgments based on reading one verse and their emotions with it, according to their environments and cultures, nevertheless, they provided the Arab criticism by laying the first foundations for some critical standards that were the basis upon which Arab critics relied after them, especially the critics of the fourth century AH, of those standards:

- Realistic honesty, go away from strangers and mix words together, division, and the quality of the meaning according to its suitability with Islamic meanings. This is what came out from the criticism of Caliph Omar bin Al-Khattab

- As the criticism of caliph Abdul-Malik bin Marwan, it was produced: the need for the poet to take into account the ingenuity of the introduction, the contexts of the praising poem, and identifying the speech as appropriate, and create and generate meanings as renewal in the metaphor, to his credit, he followed the methods of balancing the poets' meanings.

Keywords: The criticism of the two caliphs, the affection of the environment , The era of early Islam, the Umayyad era, mix words together, the ingenuity of the introduction.

فضاءات النقد عند الخليفتين(عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وعبد الملك بن مروان) – دراسة في تأثير البيئة –

عوض أحمد حسن

كلية التربية || جامعة عدن || اليمن

الملخص: عمدت الدراسة إلى إبراز تأثير البيئة في نقد الخليفتين؛ عمر بن الخطاب وعبد الملك بن مروان، فكلا الخليفتين اعتمدا الحكم الذاتي القائم على الفطرة والذوق الخاص، إذ قام حكمهما على قراءة البيت الواحد وانفعالهما به بحسب بيئة كل منهما وثقافته، ومع ذلك فقد رفدا النقد العربي إذ وضعا الأسس الأولى لبعض المعايير النقدية التي كانت سندا اتكأ عليها نقاد العرب بعدهما وبخاصة نقاد القرن الرابع الهجري. من تلك المعايير:

- الصدق الواقعي، والبعد عن الإغراب والمعاضلة، والتقسيم، وجودة المعنى بحسب ملاءمته للمعاني الإسلامية. هذا ما افرزه نقد الخليفة عمر بن الخطاب.

- أما نقد الخليفة عبد الملك بن مروان فقد افرز: ضرورة مراعاة الشاعر لبراعة الاستهلال، وسياقات القصيدة المدحية، ومطابقة الخطاب لمقتضى الحال، وابتكار المعاني وتوليدها كالتجديد في التشبية، ومما يحسب له انه اتبع طرق الموازنة بين معاني الشعراء.

الكلمات المفتاحية: نقد الخليفتين، تأثير البيئة، عصر صدر الإسلام، العصر الأموي، المعاظلة، براعة الاستهلال.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين.

انطلقت الدراسة من فرضية تأثير البيئة في الناقد وإبراز ملامحها فيه، من خلال قراءة الخطاب النقدي لدى الناقدين؛ الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة عبد الملك بن مروان، لعلنا نصل إلى النتائج التي تعكس ثقافتهما وتأثرهما ببيئتهما، وذلك بعد أنْ تصفحنا كثيرًا من المؤلفات والدراسات ذات الشأن؛ إذ لم يجد الباحث دراسة متخصصة تجمع نقد الناقدين، والنظر فيه من زوايا مختلفة للوصول إلى الفروق البيئية والثقافية بينهما إلا ما كان من دراسات فقيرة تناقش بعض نقودات أحدهما دون الآخر. من ذلك: الدراسة (الخليفة عبد الملك بن مروان الناقد الأديب) وبحث في دورية بعنوان (النقد الأدبي في مجالس عبد الملك بن مروان)، ودراسة بعنوان (معايير نقد الشعر عند الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه) إلا أن الباحث لم يفد من الأخيرة شيئًا.

مشكلة الدراسة:

1- تكمن مشكلة الدراسة في أنها تتناول أهم ناقدين، في أهم مرحلتين من تاريخ الأمة الإسلامية.
2- البحث فيما إذا كانا يمثلان الأساس النقدي لمن جاء بعدهما من النقاد.

وقد احتوت الدراسة على مقدمة وتمهيد تلاهما نقد كل من الخليفتين، وانتهت بخاتمة حوت أهم النتائج ثم قائمة بأهم المصادر التي رفدت الدراسة. وقد اعتمدت المنهج الاستقرائي التحليلي.

أهداف الدراسة:

1- العودة إلى البحث في تراث الأمة الإسلامية لاسيما وهي تمر بمرحلة ضعف.
2- بيان تأثير البيئة في الناقد وثقافته.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في تتبع نقد الخليفتين ومدى تأثرهما ببيئتهما.

التمهيد:

البيئة "ويراد بها تلك الخواص الطبيعية والاجتماعية التي تتوافر في مكان ما، فتؤثر فيما تحيط به آثارًا حسيّة" (الشايب، 1973، ص126)، والإنسان ابن بيئته كما يقولون، فيها يتشكل فكره ومنطقه، ومنها تتجسّد ثقافته وتُبنى هويته، ومن معالمها يصنع حضارته. ولنا في موقف الشاعر ابن الرومي من تشبيهات ابن المعتز خير شاهد؛ إذ " يُحكى عن ابن الرومي أنّ لائمًا لامه، فقال: لمَ لا تشبِّه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه، قال: أنشدني شيئًا من قوله الذي استعجزني في مثله، فأنشده في صفة الهلال (ابن المعتز، 2016، ص195): [من الكامل]

وانْظُرْ إليهِ كزَوْرقٍ مِن فضَّةٍ   قدْ أثْقَلَتْه حُمولةٌ مِن عَنْبَرِ

فصاح واغوثاه يا الله، لا يكلف الله نفسًا إلا وُسْعها، ذلك إنما يصف ماعون بيته، لأنّه ابن الخلفاء" (القيرواني، 2007، 244/2)، ثم أنشد ابن الرومي أبياتًا من وصفه مفتخرًا، منها قوله في صفة الرقاقة (ابن الرومي، 2003، 1110/3): [من البسيط]

ما أنسَ لا أنسَ خبأزًا مَررْتُ بهِ   يدحُو الرُّقاقةَ وَشْكَ اللمحِ بالبصرِ
ما بينَ رؤْيتِها في كفّهِ كرةً   وبين رؤيتِها زهراءَ كالقمرِ
إلا بِمقدارِ ما تنْداحُ دائرةٌ   في صَفحةِ المَاءِ يُرمَى فيهِ بالحجَرِ

ويلتمس صاحب العمدة ابن رشيق القيرواني (2007) تعليلًا لابن الرومي في حكمه قائلًا: "يريد أنّ ابن المعتز ملِك قد شغل نفسه بالتشبيه، فهو ينظر ماعون بيته وأثاثه فيُشبه به ما أراد، وأنا مشغول بالتصرف في الشعر طالبًا به الرزق، أمدح هذا مرة، وأهجو هذا كرّة، وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طورًا" (245/2).

فقد لاحظ ابن الرومي "التأثير المادي المترف على ابن المعتز" (ضيف، 2006، ص334)، في شعره، أي مدى تأثير البيئة في ذوق الشاعر، وإلى ذلك يُشير ابن رشيق، في محاولته لتعليل حكم ابن الرومي، وهذا حكم ينطبق على هذا الأخير في بيتيه في وصف الرقاقة، إذ تبرز بيئة الشاعر الشعبية البسيطة. فالشاعران من بيئتين مختلفتين كان لها أثرها في ذوقهما الأدبي، وأثرها في نقد الشاعر ابن الرومي للأبيات؛ إذ لم يلتفت إلى مدى توفيق ابن المعتز في تشبيهاته، بل نظر إلى ترف الشاعر وهو ما يفتقد إليه ابن الرومي، في حين هذا الأخير انشغل في شعره باسترضاء هذا وهجاء آخر. إذن يُبلْور نقد ابن الرومي مدى انعكاس البيئة في الذوق الأدبي والنقدي. ولا نعدم دلائل على ذلك واضحة في الساحة الشعرية والنقدية، منها ما نجده مثلًا في شعر زهير فهو "بدوي خالص وشعره صورة البداوة لفظًا ومعنى وخيالًا" (الشايب، 1973، ص 127) في حين أننا نجد أنّ الأعشى قد تحضّر فلان شعره (الشايب، 1973، ص 127)، ونجد تأثير البيئة في الذوق الأدبي ما نراه من ثورة شعرية عند أبي نواس على مقدمة القصيدة التقليدية، وذلك لاختلاف البيئة، وهو القائل (أبو نواس، 1997، ص32): [من الكامل]

صِفَةُ الطُّلولِ بلاغَـةُ القِـدمِ فاجْعلْ صِفاتِك لابنةِ الكرْمِ
تَصِفُ الطُّلولَ على السَّماعِ بِها أ فذو العيان كأنت في الحكم
وإذا وصفت الشيء متبعاً لم تخلُ من غلط ومن وهـم

وما يجري على الأدب فهو يجري على النقد، فإذا عدنا إلى العصر الجاهلي والتقطنا أبسط صور النقد، من نحو قول طرفة بن العبد المتناثر في كتب الأدب والنقد (استنوق الجمل) في بيت المتلمس (الضُّبَعي، 1970، ص 320): [من الطويل]

وقد أتَنَاسَى الهمَّ عندَ ادِّكارِه بناجٍ عليهِ الصّيْعريَّةُ مُكْدَمِ

فطرفة قادته بيئته إلى أنْ يستقبح وصف المتلمس للجمل بوصف اختصت به الناقة، ولا نبتعد عن العصر الجاهلي، فقد قيل عن بيت المهلهل (الأصفهاني، 2008، 28/5): [من الطويل]

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

"إنّه أكذب بيت قالته العرب" (عمارة، 2007، ص60)؛ لبعد المسافة ما بين حجر ومكان الموقعة، ويعدّ لذلك من الشعراء الكذبة، وقد قال عنه النابغة (المرزباني، 1995، ص 92): [من الطويل]

أتاكَ بقوْلٍ هلْهَلِ النسْجِ كاذبٍ ولمْ يأتِ بالحقّ الذي هو ناصعُ

ذلك أنّ "البيئة العربية الساذجة لا توحي بالمبالغة الشديدة، ولا تدعو إليها... والعربي لا يميل إلى التهويل في تصوير عواطفه، وهو ينقد بهذا الحس الصادق الدقيق" (عمارة، 2007، ص 59- 60)، وإذا تجاوزنا هذه المرحلة أو الحقبة إلى عصر الرواة العلماء كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وهم من نقدة الشعر فإننا نجد استحسانهم للشعراء المتقدمين من العصر الجاهلي وبداية العصر الإسلامي - وهذا أمر لا يخفى على قارئ كتب الأدب العربي القديم ونقده - ذلك أنّ هؤلاء النقدة بوصفهم رواة وعلماء لغة وحفظة قرآن فقد تأثروا بالبيئة التعليمية والعلمية التي استوطنوها، وهي بيئة الشعر القديم، لحاجتهم العلمية له، فتجدهم يميلون إلى شعر الأوائل، ولو استحسنوا شعر شاعر من المحدثين أي من شعراء العصر العباسي، قالوا لولا أنّه تأخر، فهؤلاء العلماء "نقدوا الشعر على هدى من ثقافتهم ومتأثرين بالبيئة الاجتماعية" (عمارة، 2007 ص139).

فالبيئة بروافدها الطبيعية والاجتماعية والسياسية والتعليمية والأسرية والشخصية لها أثرها في تفاوت الذوق النقدي، وهذا ما يسعى إليه الباحث في الصفحات الآتية. في دراسة موازنة ما بين نقد الخليفتين: الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، والخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

نقد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه):

نشأ عمر في البيئة الجاهلية التي سبقت الإسلام، والتي عُرفت بالفصاحة والبيان، وبلغة أهلها نزل القرآن الكريم، وهو معجزة محمد (ﷺ) الكبرى، في تحدٍّ بلاغي وبياني صريح لأهلها، وقد كان سماع عمر لآيات من القرآن المسوّغ الفعلي لدخوله الإسلام، وهذا مؤشِّر إلى مدى تأثر عمر بالقول البليغ، وحسن تذوقه له.

تعلق عمر بالإسلام تعلقاً شديدًا وعمل على تنفيذ تعاليمه، واقتفى آثار الرسول (ﷺ)، فبات في بيئة جديدة وتطبّع بثقافتها وأخلاقياتها، الأمر الذي أثر على ذوقه الأدبي، في نقده للشعر، فقد تغيرت نظرته للحياة لتغير معتقده وثقافته، تغيرت البيئة فتغيّر معها ذوقه الأدبي الذي كان ثمرته نقدًا يعكس سمات بيئته الإسلامية؛ إذ يتضح من القراءة أنّ نقده الفني قد تبلور في إطار ديني على وفق بيئته. وإذا ما عمدنا إلى نقد عمر وجدنا منه ما جاء في اللفظ، ومنه ما كان في المعنى وهو متناثر في بطون كتب التراث إلا أننا لم نجد كتابًا للباحثين القدماء والمحدثين ينتظم ذلك النقد مع أهميته. فمن ذلك الشتات، ما جاء في الأغاني أنّ سُحيمًا عبد بني الحَسْحَاس أنشده قوله (الأصفهاني، 2008، 215/22): [من الطويل]

عُمَيرةُ ودّعْ إنْ تجهّزْتَ غَاديا كَفَى الشّيْبُ والإسلامُ للمرْءِ ناهيَا

مع إعجاب عمر بالمعنى بصورة عامة؛ إلا أنّه أنكر على الشاعر تقديم الشيب على الإسلام؛ إذ قال " له عمر: لو قدّمت الإسلام على الشيب لأجزتك" (الأصفهاني، 2008، 215/22)، وهنا تطغى شخصية عمر الغيورة على الإسلام الملتزمة بأخلاقياته، والمتبعة لخطى النبي (ﷺ)؛ إذ أخذ على الشاعر سوء تصرفه في التقديم والتأخير من حيث المعنى؛ والشاعر فيما يبدو عمد إلى استقامة الوزن ولم يدرك ما وقع فيه من زللٍ معنوي، في تقديمه الشيب، والإسلام أهم من الشيب وأولى بالتقديم، فالإنسان يجب أنْ يعود إلى الله وينفذ تعاليم الإسلام التي تأمره بالعودة إليه، وتنهاه عن ارتكاب المعاصي قبل أنْ يدبّ الشيب فيه فيشعر بالضعف وعدم القدرة على ارتكاب المعاصي، فتصبح توبته مرهونة بضعفه وعدم قدرته على ممارسة المعصية أو الخطيئة، وليس خوفًا من الله، وعملًا بأوامره ونواهيه، وأثبتت التجربة الإنسانية على المدى، أنّه قد لا يكون الشيب ناهيًا، فبعضهم يشيب ومازال يسعى إثر المعاصي قدر طاقته ولو بالتمني. وهنا تكمن فطنة عمر الناقد وذكائه؛ على وفق سلوكيات الفرد المؤمن في البيئة المسلمة؛ إذ عاب على الشاعر تقديم الفرع على الأصل، والصحيح العكس. وربما أفاد من تمثل الرسول (ﷺ) الشطر الثاني من البيت الشعري؛ بتقديم الإسلام على الشيب فجاء مكسور الوزن (الأصفهاني، 2008، 213/22):

كَفَى بالإسلامِ والشّيْبِ ناهيَا

إنّ خليفة المسلمين في نقده للشاعر إنّما نظر للمعنى من منظور ديني، وعليه فلم تجب إجازة الشاعر. كان عمر يفضل زهيرًا ويمتدحه لأنّه "لا يُعاظِل بين الكلام (*)، ولا يَتْبع وحْشيَّه (*)، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه" (الجمحي، 1980،1/63)، لعل تعليل عمر لتقديمه زهيرًا على شعراء عصره يحمل بداية للنقد المعلل، بل يُعدّ نقلة نوعية في عالم النقد الفني القائم على التعليل، بعد أنْ كان في العصر الجاهلي يعتمد الأحكام العامة التي تخلو من التفسير

* - لا يعاظله: لا يُعقِّده.

* - وحشيه: لفظ خشن مستغرب.

والتحليل والتعليل الأمر الذي مثّل متكأً استند عليه النقاد من بعد عمر؛ إذ استنبطوا منه معايير نقدية فنية، فهذا قدامة بن جعفر في القرن الرابع الهجري يعمد إلى حُكم عمر في شعر زهير إذ أشار في كتابه (نقد الشعر) إلى المعاظلة بوصفها من عيوب اللفظ لدى الشاعر (قدامة، 2006، ص 151)، وذكر أبو هلال العسكري (2006) أنّ من "سوء النظم المعاظلة، وقد مدح عمر رضي الله عنه زهيرًا لمجانبتها" (ص151) وهذا هو المعيار الأوّل، أمّا المعيار الثاني فتجده في نقد عمر أنّ زهيرًا (لا يتبع حوشي الكلام) وهو من عيوب اللفظ أيضًا عند النقاد بعده، يقول ابن رشيق القيرواني (2007): "الوحشي من الكلام ما نفر عنه السمع" (269/2)، والمعيار الثالث نستنبطه من قوله: (ولا يمدح الرجل إلا بما فيه)، وهو الصدق، وصار من المعايير النقدية التي انشغل بها بعض النقاد فيما بعد من مثل ابن طباطبا العلوي (1956، ص6)، وأبي هلال العسكري (2006، ص 136)، ومع هذه النظرة التأملية الموضوعية من الناقد عمر للصياغة والمعاني في شعر زهير فلم يخلُ نقده من المسحة الدينية؛ التي بدت واضحةً في دعوته إلى الصدق، في قوله (ولا يمدح الرجل إلا بما فيه)، فهو لا ينفك ينظر للشعر ووظيفته من منظور ديني.

ومن نقودات عمر ما جاء في صحة التقسيم وهو ما عُرف في القرن الرابع الهجري بأحد أقسام البديع ويعني عند قدامة (2006) "أنْ يبتدئ الشاعر فيضع أقسامًا فيستوفيها ولا يغادر قسمًا منها" (ص120).

أنشد عمر بن الخطاب قول زهير (ابن أبي سُلمى، 1980، ص138): [من الوافر]

وإنّ الحقَّ مقطَعُه ثلاثٌ   يمينٌ أو نَفَارٌ أو جلاءُ

متعجبًا "بمعرفته بمقاطع الحقوق وتفصيلها" (الأندلسي، 1983، 131/6)، والتي هي: إمّا يمينٌ وهو القسم، أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات، أو جلاء وهو بيان برهان يجلو به الحق وتتضح الدعوى. وهذا يعدّ سبقًا لعمر في صحة التقسيم الذي هو من البديع وهو ما أشار إليه النقّاد في عصور متأخرة.

يظهر إعجاب عمر بالشعر الذي يتوافق مع رسالة الإسلام، وكذلك من قدرة زهير على

استيفائه لأقسام الحقوق. وكان عمر أيضًا يُعجب لسماع قول عبدة الطيب (الضَّبِّي، 2010، ص 142): [من البسيط]

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليسَ يُدركُهُ   والعيشُ شُحٌ وإشفاقٌ وتأميلُ

إذ علم من معنى البيت أنّ الإنسان كثيرًا ما يجهد نفسه للوصول إلى أمور دنيوية، ونسي أنّه لن ينال إلا ما كتبه الله له، وأنّ الحياة في الدنيا عادة ما يصاحبها البخل أحيانًا، والعطاء في أحايين أخرى، لكن الأمل يبقى هو المتنفس للإنسان. ومما رُوي أيضًا أنّ عمرًا لقيَ أعرابيًّا في مقبرة المدينة فسأله عن سبب وجوده في دار الحق فقال الأعرابي: "ابن لي حين ترعرع فقدته فأنا أندبه! قال عمر: اسمعني ما قلت فيه، فقال: [من المنسرح]

يا غائبًا ما يئوبُ من سفَرِهْ   عاجَلَهُ موْتُهُ على صِغَرِهْ
يا قُرَّةَ العيْنِ كنتَ لي سكَنًا   في طولِ ليلي نعَمْ وفي قِصَرِهْ
شرِبْتَ كأسًا أبوك شاربُها   لا بُدَّ يومًا له على كِبَرِهْ
أشربُها و الأنامُ كلُّهُمُ   مَنْ كانَ في بَدْوِه وفي حضَرِهْ
فالحمدُ لله لا شريكَ له   الموتُ في حُكمِهِ و في قدَرِهْ
قد قسمَ الموتَ في الأنامِ فما   يقدِرُ خلْقٌ يزيد في عُمُرِهْ

قال عمر: صدقت يا أعرابي، غير أنّ الله خير لك منه" الأندلسي (1983، 212/3) فالصدق سمة واضحة في أبيات الأعرابي، وهو ما ينادي به عمر، غير أنّ الأعرابي في ندبه وبكاه الدائمين يخالف ما أورده في بيتيه الأخيرين، ومبدأ (الرضا بالقدر خيره وشره)، ومن هنا ذكره عمر بقوله (إنّ الله خير لك منه)، إنّما يدل الموقف على رغبته في سماع الشعر وحسن تذوقه له، وفطنته في تتبع السياقات والمعاني الجيدة الموافقة لأخلاقيات الإسلام، ويبدو أنّ

إعجاب عمر بالأبيات إنما اقتصر على إثباتها لحقائق ملموسة وأخرى غيبية تُعبر عن قوة الإيمان لدى الأعرابي، في الوقت الذي لم يلتفت عمر الناقد إلى خلّوها من التصوير الذي يبرز شعريتها واقتدار شاعرها.

لقد كان عمرﷺ من الملازمين لرسول الله (ﷺ)، والناهلين من ينابيع الإسلام الصافية، ثم ما إنْ وُلي أمر الأمة حتى توجّه لإصلاح المجتمع الإسلامي على وفق مبادئ الإسلام العادلة وأخلاقه السامية، فنجده يُعاقب النعمان بن عدي، وهو من السابقين إلى الإسلام والمهاجرين إلى الحبشة، بعد أنْ ولّاه على ناحية من نواحي البصرة، لقوله في الخمرة (النويري، 2004، 4/ 99): [من الطويل]

ألا أبْلغ الحسْناء أنّ خلِيلَها بمَيْسَان يُسْقَى في زُجاج وحنْتَمِ
فإنْ كنتَ ندْماني فبالأكبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلّمِ
لعلّ أمير المؤمنين يسوءُهُ تنادُمُنا بالجَوْسَقِ المتهدّمِ (*)

فبلغ الشعر عمر وساءه أنْ يقوله أحد ولاته فعزله. فقدم النعمان إليه معتذرًا وأنّه ما صنع شيئًا مما بلغ الخليفة، ولكنّه شاعرٌ، خاض فيما يخوض الشعراء. فأبى عمر أنْ يستجيب له (النويري، 2004، 4/ 100). لعل عمر قد أراد من عقاب النعمان بن عدي توجيه رسالة اجتماعية للولاة والمجتمع، أراد من خلالها إشعار كبار القوم بأنّكم القدوة للمجتمع فلا يجوز لكم الخوض في الشبهات والترغيب في الممنوعات والاقتداء بمن مضى من الشعراء، فالإسلام لا يتهاون في الممارسات المجافية للأخلاق.

وفي سياق الإصلاح الاجتماعي، نجد عمرًا يحبس أبا محجن الثقفي مع أنّ الأخير أحد الفرسان المعروفين ببلائهم في المعارك الإسلامية بل ومن الأبطال الذين يعتمد عليهم عند مواجهة الأعداء، إلا أنّ ذلك كله لم يغفر لأبي محجن الثقفي عند عمر إذ أمر بحبسه وإقامة الحدّ عليه، بسبب قوله (الأصفهاني، 2008، 9/19): [من الطويل]

إذا مِتُّ فادفِنّي إلى أصلِ كَرْمَةٍ تُروّي عِظامي بعدَ مَوْتي عُرُوقُها
ولا تدفننّي في الفلاةِ فإنّني أخافُ إذا مَا مِتُّ ألا أذُوقُها

وفي سياق الإصلاح الاجتماعي لعمر، محاكمته للحطيئة؛ إذ قال في الزبرقان بن بدر (الحطيئة، 1993، ص119): [من البسيط]

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحلْ لِبُغْيَتِهَا واقْعُدْ فإنّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي
مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لا يَذْهبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والنَّاسِ

"فاستعدى عليه الزبرقان عمر، فرفعه عمر إليه واستنشده فأنشده؛ فقال عمر لحسان: أتراه هجاه؟ قال: نعم وسلح عليه، فحبسه عمر" (الأصفهاني، 2008، 2/ 120). ومثل ذلك فعل مع الشاعر النجاشي الحارثي، عندما استعداه بنو العجلان على النجاشي، وكان قد هجاهم، في قوله: [من الطويل]

"قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرون بِذِمّةٍ ولا يظْلِمُونَ الناسَ حبَّةَ خرْدَلِ

فقال عمر: ليت آل الخطاب هكذا،... قالوا: وقد قال أيضًا:

تعَافُ الكِلَابُ الضارياتُ لحُومَهُم وتأكُلُ مِنْ كَعْبٍ وعَوْفٍ ونَهْشَلِ

فقال عمر: أجنّ القوم موتاهم فلم يضيعوهم... ثم بعث إلى حسان والحطيئة وكان محبوسًا عنده فسألهما، فقال حسان مثل قوله في شعر الحطيئة، فهدد عمر النجاشي وقال له: إنْ عدتَ قطعت لسانك" (ابن قتيبة، 1982، 1/331).

* - ميسان: بلدة في العراق، وحنتم: جرار الخمر.

هذا هو منهج عمر القائم على إصلاح المجتمع ومحاسبة الداعين إلى ما يفرز سموم الفرقة والتشاحن بين المجتمع الواحد، وذلك قد تجسّد في سلوك عمر الداعي إلى التمسك بأخلاق الإسلام ورسوله الكريم. وروى الجمحي في طبقاته أنّ عبد بني الحسحاس أنشد عمرًا: [من الطويل]

فبـاتَ وِسـادَانَا إلى عَلَجانَةٍ وحِقْف تَهادَاهُ الرِّيَاحُ تَهادِيا

وهبّتْ شَمالٌ آخِرَ الليل قَرّة ولا ثوبَ إلا دِرعُها ورِدَائيا

فما زالَ بُردي طيّبًا من ثيابها إلى الحَوْلِ حتى أنْهجَ الثوب باليا (*)

فقال له عمر: ويلك إنّك مقتول (الجمحي، 1980، 1/187-188). وفي قول عمر هذا رفض لكل شعر يخالف النواميس الإسلامية أو يثلم في القيم الاجتماعية النبيلة التي قام على أساسها بنيان المجتمع المسلم، لأنّ قبول مثل هذا الخطاب الشعري بهذا الصوغ الماجن يؤدي إلى زعزعة الأعراف الأخلاقية للمجتمع والذهاب به إلى الرذيلة والمجون.

نقد الخليفة عبد الملك بن مروان:

في هذا العصر فتح الخلفاء قصورهم لرجالات الأدب والعلم، بخاصة الشعراء، إذ عمد خلفاء بني أمية إلى اجتذابهم، وأغدقوا لهم العطاء لإدراكهم أهمية الشعراء ومكانتهم، فوفد الشعراء إلى مجالس تلك القصور، لاسيما مجالس عبد الملك، ولكن لم يكن استقطابه الشعراء لحاجة سياسية فحسب، بل كان الخليفة عبد الملك يتمتع بروح أدبية وذوق فطري وحسّ نقدي، لقد عُرِف بأنّه أعلم خلفاء بني أمية بالشعر ونقده. وبحفظ الشعر وروايته وتمثله في كثير من المواقف وبسعة المعرفة، والعلم بآداب العرب (السيوطي، 2013، ص356). فقد غدا الشعر مادة لتلك المجالس، الأمر الذي أدى إلى حركة شعرية في الشام - مقر الخلافة الأموية - وقامت على إثرها حركة نقدية، وكان لعبد الملك النصيب الأوفر، إذ أسهم إسهامًا ملموسًا في تطوير النقد العربي.

تغيرت البيئة وتغير معها ذوق الناس بحسب المثيرات والمؤثرات فيها، فقد كان للتغيّرات السياسية في العصر الأموي من فتوحات وحروب وفتن داخلية وحكم ملكي وراثي استحدثه بنو أمية في الدولة الإسلامية أثرها في المجتمع الإسلامي، على عامة الشعب وساستهم، ونتوجه بالحديث هنا إلى الساسة فقد طغت على حياتهم مظاهر الترف التي بدت واضحةً في بلاط الحكم، وفي مجالس الخلفاء والأمراء، وضَعُفَ الوازع الديني، فتغافل الخلفاء بعمد وبغير عمد عن كثير من التعاليم الإسلامية وأخلاقياته، ما أوجد مجتمعًا غير مجتمع صدر الإسلام الذي كانت فيه التعاليم الإسلامية وأخلاقياته هي الملاذ الأوحد والمرجع الأساس في العيش والتشريع.

ونخص بالحديث الخليفة عبد الملك بن مروان الناقد موضوع الدراسة. الذي استقطب الشعراء واستقدمهم من البلاد العربية، وغدت مجالسه ميدانًا لتنافس الشعراء والمحاورات الأدبية والنقدية، فجاءت نقوداته تحمل سمات المجتمع الأموي وعصره الذي تغيرت سياسته واتسعت ثقافته، وغدا الحكم إرثًا عائليًّا، الغلبة فيه للأقوى، وشهدت الخلافة الأموية حروبًا وفتنًا داخلية، كادت أنْ تودي بها، حتى جاء عبد الملك فغلب مصر والشام ثم العراق حتى صحت خلافته واستوثق له الأمر (السيوطي، 2013، ص354) ولا ننسى الحضارة والمدنية، تلك بيئات كان لها أثرها في تلوين ذوق عبد الملك الأدبي ونقده، تتحكم به النزعة الشخصية الملكية الحاكمة. فنحن إذا عدنا إلى نقودات الخليفة عمر وجدناها تصب في المجرى الإسلامي المحض، في حين تجد معظم نقودات عبد الملك تصب في مجرى الأهواء الذاتية والنزعة السياسية والشخصية.

* - عَلَجانة: شجر لا ورق فيه، وحقف: الرمل المعوج.

ومن نقوداته التي يظهر فيها حضور الصبغة الإسلامية، أنّه أنكر على الشعراء تكرارهم التشبيهات القديمة فيه، مثل تشبيههم له بالأسد، واستحسن قول أيمن بن خُريم في بني هاشم: [من الوافر]

نهارُكُمُ مُكابَدَةٌ وصومٌ ... ولَيْلُكُمُ صلاةٌ واقتراءُ

وَليتم بالقرآنِ وبالتّزَكّي ... فأسرع فيكمُ ذاكَ البلاءُ

لما فيه من معانٍ دينية، (الأصفهاني، 2008، 20/ 196).

يرى بعض الدارسين (عمارة، 2007) أنّ الخليفة بطلبه هذا إنما "يوجّه الشعراء إلى أنْ يعتدوا في مدحهم للخلفاء بالمعاني الدينية والقيم الخلقية التي تستوجب رضا الله وحب الرعية وينهاهم عن المدح بالجاه والمال والسلطة" (ص124). وتراه يستاء من عبيدالله بن قيس الرقيات في قوله (الأصفهاني، 2008، 52/5): [من المنسرح]

إنّ الأغرَّ الذي أبوه أبو الـ ... عاصي علَيه الوقارُ والحُجُبُ

يعتدِل التَّاجُ فوقَ مِفرِقِه ... على جَبينٍ كأنّه الذَّهَبُ

إذ مدحه بالتاج كأنّه من العجم في حين قال في مصعب: [من الخفيف]

إنّما مُصعَبٌ شِهابٌ من الله ... تَجَلّتْ عن وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ

مُلْكُه مُلكُ عِزّة لَيسَ فيهِ ... جَبَروتٌ مِنه ولا كِبْرياءُ

وقال بعد هذين البيتين (ابن قتيبة، 1982، 539/1):

يتَّقِي اللهَ في الأُمُورِ وقَد أَفَـ ... ـلَحَ مَنْ كانَ همَّهُ الاتِّقاءُ

وقال قدامة (2006) معللًا استياء الخليفة: "فوجه عتب عبد الملك إنما هو من أجل أنّ هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة" (ص 158)، فهذا يعدّه غلطًا وعيبًا.

ردّ بعض الدارسين (إبراهيم، 2004) على قدامة أنّه "لم يقع البيت موقعًا حسنًا من نفس عبد الملك لا لأنّه عدل في مدحه عن الفضائل النفسية كما يقول قدامة، بل لأنّ بين البيتين بونًا شاسعًا في الجمال والقوة والروح؛ لأنّ بيت ابن الرُّقيّات في مصعب أروع وقْعًا وأعلى نفسًا، وأمس بالنور العلوي وأشد اتصالًا بالله الذي يحرص الخلفاء على أنْ يمثلوه في الأرض، لهذا وحده عتب عبد الملك على الشاعر، وليس لخلو بيته من الفضائل النفسية" (ص 165)، وهو كذلك، فعبد الملك يوجّه الشعراء إلى أنْ يعتدوا في مدحه بالمعاني الدينية والقيم الخلقية (عمارة، 2007، ص124). ولكن ليس لأنها تستوجب رضا الله وحب الرعية. ولكنه أراد أنْ تكون له هالة قدسية كتلك التي يتمتع بها بنو هاشم، لهذا رغب في أنْ يقال فيه ما قاله أيمن ابن خريم في بني هاشم، واستاء من ابن الرقيات وعتب عليه في قوله (يعتدل التاج فوق مفرقه) إذ وجه المتلقي إلى التاج الذي هو من أولويات الملوك الأعاجم؛ إذ قال (تمدحني بالتاج كأنّي من العجم) (الأصفهاني، 2008، 52/5)، أما العرب فمن أولوياتهم الخلقيات المثالية وبخاصة الدينية، إذ تُكسب المرء هالة قدسية وروحانية، ويبدو أنّ الخليفة عبد الملك قارن بين المعنيين فوجد الفرق واضحًا بين قول الشاعر فيه وقوله (إنما مصعب شهاب من الله)؛ إذ يتوجه المتلقي في هذا القول إلى تقديس مصعب ما يكسبه هالة روحانية، فالناس كانوا إلى هذه الصفات أميل، وهو كملك يريد أنْ يكسب هذه الروحانية والنور العلوي، التي تجعل العامة تنساق إليه طوعًا لا كرهًا، وبخاصة في زمنه التي بدأت فيه ظهور بعض الفرق الدينية التي تقدس زعماءها وتطيعهم الطاعة العمياء.

فنقده هنا نابع من نزعة نفسية ذاتية من تأثير البيئة التي يعيشها، لا علاقة له بالنقد الموضوعي الذي يتتبع الفكرة في نظمها (لفظًا ومعنًى).

ومع رغبته في تمثل الشعراء للمعاني الدينية، تجده يرفض بيتين آخرين يحملان معنى بيتي ابن خريم ذاته، وهما قول الراعي النميري من قصيدة أنشدها أمامه: [من الكامل]

"أ خليفة الرحمان إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة مُنزّلا تنزيلا

"فقال له عبد الملك ليس هذا شعرًا، هذا شرح إسلام وقراءة آية" (المرزباني، 1995، ص191)، لعل عبد الملك أصاب في نقده هنا؛ إذ كان ذو دلالة موضوعية، فما قاله الراعي ليس شعراً، لأنه لا عاطفة فيه ولا شعور ولا تصوير. إنما هو تقرير حالة، ولكن ألا يُوجّه النقد ذاته إلى بيت ابن خريم في وصف بني هاشم:

نهارُكُمُ مُكابَدَةٌ وصومٌ ولَيْلُكُمُ صلاةٌ واقتراءٌ

وبالنظر إلى أبيات كل من ابن الرقيّات والراعي النميري، التي استوقفت الخليفة عبد الملك، سنجد أنّ ابن الرقيات كان متشيعًا للزبيريين وكثيرًا ما مدح مصعب بن الزبير ونصره، وكان هذا سببًا في هدر دمه، ولم يمثُل أمام الخليفة عبد الملك إلا بعد مقتل ابن الزبير وصار الأمر لعبد الملك فجاءه مستشفعًا بأحد المقربين (ابن قتيبة، 1982، 539/1)، أما الراعي النميري فقد جاء مادحًا غير أنّ القصيدة جاءت في الشكوى من عمال الخليفة والبيتان في قومه لا مدحًا للخليفة ابن مروان.

يرى عمارة (2007) أنّ الخليفة عبد الملك بطلبه من الشعراء أنْ يعتدوا في مدحه بالمعاني الدينية والمثل الخلقية، إنما ينهاهم عن المدح بالجاه والمال والسلطة (ص 124)، ومع ذلك تجده يتجاوز هذا الأسلوب من المدح في بعض القصائد، كما حدث في رائية الأخطل ومطلعها (الأخطل، 1996، ص 144): [من البسيط]

خفَّ القَطِينُ فراحُوا منكَ أو بَكَرُوا وأزعَجَتْهُم نَوًى في صَرفِها غِيَرُ

بل هلّل وأطلق على الأخطل لقب شاعر بني أمية، وفيها من معاني المدح ما كان بالمال والجاه والسلطة، حتى المبالغة من نحو قوله (الأخطل، 1996، ص 147):

إلى امرِئٍ لا تُعرّينا نَوافِلُهُ أَظفَرَهُ اللهُ فلْيَهنِئْ لهُ الظَّفَرُ

الخائضِ الغَمرَ والميمُونِ طائِرُهُ خليفَةِ اللهِ يُسْتسقَى به المطَرُ

وقال فيها:

وما الفُرَاتُ إذ جاشتْ حَوالِبُهُ في حَافَتَيْهِ وفي أوساطِه العُشَرُ

وذعْذعَتْهُ رِياحُ الصيفِ واضطَرَبتْ فوقَ الجآجِئِ من آذِيِّهِ غُدُرُ

يومًا بأجْوَدَ مِنهُ حينَ تسأَلُهُ ولا بأجهَرَ مِنهُ حينَ يُجْتَهرُ (*)

وقال فيها يشبهه بالأسد وكان قد عتب على الشعراء في وصفهم لهم به:

مفتَرِشٌ كافْتراشِ اللّيثِ كَلْكَلَهُ لِوَقْعَةٍ كائنٍ فيها لَهُ جَزَرُ

وهذا قول كُثيّر أنشده فيه: [من الطويل]

يصدُّ ويُغضي وهو ليثُ خفيَّةٍ إذا أمكنته عَدْوَةٌ لا يُقيلها (*)

فأعطاه عبد الملك وأحسن إليه (المرزباني، 1995، ص178) وهناك أيضًا قول جرير (جرير، 1986، 89/1): [من الوافر]

---

*- الحوالب: منابع الماء والعيون الفوّارة، وذعذعته الريح: حرّكته تحريكًا شديدًا، والجآجئ: جمع جؤجؤ وهو صدر السفينة، والآذي: الموج،

*- وخفية: المأسدة المكان الذي تجتمع فيه الأسود.

أغثني يا فـداك أبي وأمي   بسيب منك إنّك ذو ارتياح
وإنّي قـد رأيت عليّ حقًّـا   زيارتي الخليفـة وامتداحي
سأشكرُ إنْ رددت عليّ ريشي   وأثبتَّ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راحِ

بعد سماعه هذا البيت "تبسم عبد الملك وقال كذلك نحن ومازلنا كذلك" (الأصفهاني، 2008، 50/8) انظر إلى النشوة التي تمتلئ بها نفسه عندما فضله جرير عن العالمين، مع أنّ التفضيل كان بالجاه والمال. فالمسألة عند الخليفة ليست رفضه التشبيه بالأسد أو غيره إنما في المعاني التي تحملها هذه الأساليب، فهو يريد أنْ تكون المعاني طريفة جديدة مبتكرة يختصّ بها دون غيره. فبيئة الخليفة عبد الملك بيئة سلطة قائمة على الفرد الحاكم، على نمط الحكم الملكي وما يتبعه من طقوس، وهي بيئة تستكثر من المدح، ولا ضير من أنْ يتخلل المدح المبالغة المفرطة وإنْ كانت تخالف المعتقدات الإسلامية، من نحو قول الشاعر مادحًا (الأخطل، 1996، ص147): [من البسيط]

الخائضِ الغَمرَ والميمُونِ طائِرُهُ   خليفَةِ الله يُسْتسقَى به المطَرُ

أو في الهجاء من القصيدة ذاتها، إذ يقول:

قومٌ تنَاهَتْ إليهم كلُ فاحشَةٍ   وكلُ مُخْزِيةٍ سُبَّتْ بها مُضَرُ
عَلى العِياراتِ هدّاجُونَ قد بلَغَتْ   نجرانَ أو حُدِّثَتْ سَوْءاتِهم هَجَرُ
الآكِلونَ خَبيثَ الـزادِ وَحدَهُمُ   والسّائِلون بظَهرِ الغَيبِ ما الخَبَرُ

لقد تغافل الخليفة عبد الملك في هذه المدحية عن بعض التعاليم الإسلامية التي تنهى عن الهجاء - كما كان الحال عند عمر بن الخطاب - ذلك أنّ الخليفة نظر إلى القصيدة من خلال قيم مدحية أسبغها عليه الأخطل (جفّال، 1991، ص213). وتغافل عن وصف الشاعر للخمرة في مقدمة القصيدة؛ إذ يقول (الأخطل، 1996، ص144):

خفَّ القَطِينُ فراحُوا منكَ أو بَكَرُوا   وأزعَجَتْهُم نَوًى في صَرفِها غِيَرُ
كأنّني شاربٌ يوم استُبِدَّ بِهِم   من قَرقَفٍ ضُمِّنَتْها حمصُ أو جَدَرُ
جَادَت بها مِن ذَواتِ القَارِ مُترعَةٌ   كَلْفاءُ يَنحَتُّ عنْ خُرطُومِها المَدَرُ
لَذٌّ أصابَتْ حُمَيَّاها مَقاتِلَه   فلمْ تَكَدْ تنْجَلي عن قَلبِهِ الخُمَرُ

بل إنّه يستنشد الشعراء ما قالوه في الخمر، ويُثني على منشده ويحسن إليه، فقد ورد في كتاب الأغاني (الأصفهاني، 2008) أنّه قال للأُقيشر: انشدني أبياتك في الخمر، فأنشده قوله: [من الطويل]

تُرِيك القَذى من دونها وهي دونه   لوَجْهِ أخيها في الإنَاءِ قُطُوبُ
كُمَيْتٌ إذا فُضَّتْ وفي الكَأسِ وَرْدَةٌ   لها في عِظَامِ الشَّاربين دَبِيبُ

فقال له: أحسنت يا أبا مُعْرِض، ولقد أجدتَ وصفها، وأظنّك قد شَربتها، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنّه لَيَريبُني منك معرفتُك بهذا (182/11- 183). محادثة تبرز ثقافة الخليفة المتأثر بالبيئة الجديدة التي سمحت له بالتغافل عن بعض الأمور المنهي عنها إسلاميّا، وهو بوصفه خليفة المسلمين كان عليه إقامة الحد، كما كانت الحال عند الخليفة عمر. ولكن للبيئة أثرها في توجيه ثقافة المرء وفي رسم ذوقه العام والخاص. الذي يتبلور في آرائه النقدية وتوجّهاته الأدبية فهو ينظر إلى الشعر من حيث هو نظم جميل ينعش فكر المتلقي وينتشي به إحساسه، وخاصة بعد انتشار مجالس اللهو والطرب ورحلات الصيد، وهي بيئة محيطة أكثر بعلية القوم، فمما يلفت النظر أنْ تجده ينساق وراء هذه المعاني غير مكترث بما وافق التعاليم الإسلامية وما شذ عنها.

ومن صور الترف الفكري الذي يستلذه الخليفة فقد ورد في العقد الفريد (الأندلسي، 1983) أنّ ابن أبي عتيق دخل على عبد الملك – وكان قد دعاه إلى مجلسه – "فوجده جالسًا بين جاريتين... بيد كل جارية مروحة تروّح بها عليه، مكتوب في المروحة الواحدة:

إنّني أجلِبُ الرِّيـا ح وبي يلعبُ الخجلْ
وحِجابٌ إذا الحبيبُ ثنى الرأسَ للقُبلْ
وغياثٌ إذا النَّدِ يمُ تَغنّى أو ارتَجلْ

وفي المروحة الأخرى:

أنا في الكفِّ لطيفهْ مسْكني قصرُ الخليفهْ
أنا لا أَصْلُحُ إلّا لظريفٍ أو ظريفهْ
أو وصَيفٍ حَسَنِ القدّ شبيهٍ بالوصيفهْ"

تصور الأبيات البيئة المحيطة بالخليفة، من جوارٍ جميلات يتبخترن حوله في مجلسه وملامح الغلام الشبيه بالوصيفة (7/ 24، 25)، فقد استجاد هذا اللون من الشعر الغزلي الذي فيه من الفحش ما يتنافى والتعاليم الإسلامية، ويتحول الأدب في قصره إلى لون من الترفيه. وكان يستنشد الشعراء الشعر الغزلي؛ إذ استنشد ابن الشاعر عبد الله بن الجحش، قول أبيه [من السريع]

دارٌ لصهْباءَ التي لا ينْثني عن ذكرها قلبي ولا أنساها
صفراءُ يطويها الضجيعُ لصلبها طَي الحمالة ليّن مَتناها
لو يستطيعُ ضجيعُها لأجنّها في القلب شهوةَ ريحها ونشاها

قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أرويه، وإنّ صهباء هذه لأمّي (الأصفهاني، 2008، 155/19)، ومما رُوي أنّ عبد الملك أصبح يومًا في غداة باردة فتمثل هذه الأبيات (الأخطل، 1996، ص 560): [من الوافر]

وكأسٍ مِثلِ عَينِ الدّيكِ صِرْفٍ تُنسِي الشَّارِبينَ لها العُقُولا
إذا اصْطَبَحَ الفَتى مِنها ثَلاثًا بغَيرِ الماءِ حاولَ أنْ يَطُولا
مَشَى قُرَشِيّةً لا عَيبَ فِيها وأرْخى مِن مَآزِرِهِ الفُضُولا

"ثم قال: كأنّي أنظر إليه الساعة مُجَلّلَ الإزار مستقبل الشمس في حانوت من حوانيت دمشق، ثم بعث رجلًا يطلبه، فوجده كما ذكره" (الأصفهاني، 2008، 207/8). ومما ورد في الأغاني أنّ الأخطل دخل ينشد الخليفة (خفّ القطين) وهو يترنح بسبب شربه الخمرة، فلما أتمها، طلب الخليقة عبد الملك من غلامه أنْ يأخذ بيد الأخطل ويُخرِجْه، ويُحسِن جائزته، لأنّه شاعر بني أميّة (الأصفهاني، 2008، 211/8). إنّ استنشاد الخليفة الشعراء في الخمر وتمثله هذا اللون من الشعر وذكره حوانيت دمشق، وطلبه للشاعر، ليتأكد أنّه يعاقر الخمرة، وحال الجاريتين في مجلسه، إنما يبرز البيئة الإسلامية التي طرأ عليها كثير من التغيير ويدل على ضَعف الوازع الديني، واتّباع الحاكم لأهوائه، ومثل هذه البيئة وإنْ كانت إسلامية فلابد أن تنتج ذوقًا أدبيًّا غير ذوق الخليفة عمر.

قد يقول قائل إنّ الزمن تغير، نعم إنّ الزمن تغيّر وإنّ البيئة لها دورها في الفرد فكرًا وثقافة ورؤية، ولكن ماذا يقول القائل في موقف الخليفة عمر بن عبد العزيز ألم يكن الزمن ذاته والمجتمع ذاته، فاسمع إلى قوله في أعشى بني تغلب وقد وفد إليه مادحًا، وكان قد اعتاد أنْ يمنحه الخليفة الوليد بن عبد الملك جائزة كلما جاء مادحًا، غير أنّ الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يعطه شيئًا وقال: "وما أرى للشعراء في بيت المال حقًّا، ولو كان لهم فيه حقٌّ لما كان لك؛ لأنّك امرؤ نصراني" (الأصفهاني، 2008، 11 /190). والأخطل سكير ونصراني، وشعره يعجب الخليفة ويتوافق مع توجهاته وهواه.

وإذا كان الأمر كذلك لما كان الاختلاف بين الخليفتين المتعاصرين؛ وكلاهما يعيش في المجتمع ذاته، ذلك أن البيئة المحيطة بالفرد لها عدة روافد ومنابع فهناك البيئة الأسرية وبيئة المجتمع والبيئة التعليمية والبيئة الذاتية، وكلها تصب في فكر الإنسان وتؤثر في سلوكه ورؤياه وكذلك في ذوقه، فعمر بن عبد العزيز كانت البيئة الأسرية الخاصة بوالديه - ولا يخفَ على أحد أنّه من أحفاد ابن الخطاب الذي عُرف بالتزامه التعاليم الإسلامية – ولعل ذاك كان له أثره في تنشئته وكان أقوى فاعلية في توجيه سلوكه، الأمر الذي أدى إلى بناء بيئة محاطة بتعاليم الإسلام، لم تنل منه متغيرات المجتمع، إلا أنّ عبد الملك اختلفت تنشئته مع أنّ من المصادر ما تروي أنّه عاش حياة عالمٍ وفقيه قبل أنْ يتسلّم أمر المسلمين، ولكن لما تمت له البيعة ألقى القرآن وقال: هذا فراق بيني وبينك (الدمشقي، 1999، 381/12)، فقد عاش كابن خليفة محاط ببيئة الملك وشهد مع أعمامه وأبيه كثيرًا من الأحداث التي لها أثرها في نفسه، وكذلك كان لانتصاراته على خصومه أكبر الأثر؛ إذ غدت جل البلاد الإسلامية تحت حكمه وتدين له بالولاء والطاعة، ما جعله يستشعر عظمة الذات الحاكمة فقد قال في إحدى خطبه بعد قتله مصعب بن الزبير واعظًا: "ولا أعرفنكم بعد الموعظة تزدادون جراءة؛ فإني لا أزداد بعدها إلا عقوبة" (الأصفهاني، 2008، 17/ 97-98)، فهو خليفة يحكم بيد من حديد، وقد دانت له - كما أسلفنا - البلاد الإسلامية شرقًا وغربًا، ويبدو أنّ عبد الملك قد أصبح يستشعر عظمة البيئة التي يعيشها أي بيئة الملوك والإمبراطوريات التي أصبحت تحكم رقعة كبيرة من الجغرافيا وكثيرًا من الأمم، ويرى أنّ ما أوتي من سلطة بقوته وحده، وينكر أي فضل لأحد عليه في انتصاراته، وهذا ما بدا في رده على قول الشاعر (الأخطل، 1996، ص 151): [من البسيط]

وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنينَ بنا   لما أتَاكَ ببَطن الغُوطَةِ الخبرُ

قال عبد الملك بعد سماعه هذا البيت: "بل أيّدني الله" (المرزباني، 1995، ص175). وأنشده أعشى بني ربيعة قوله: [من الطويل]

وإنّ فؤادي بين جَنبيَّ عالمٌ   بِما أبْصرتْ عيني وما سمِعتْ أُذْني

وفضَّلني في الشّعرِ واللُّبّ أنّني   أقولُ على علمٍ وأعرفُ مَن أعْني

فأصْبحتُ إذْ فضَّلْتُ مروانَ وابنَه   على النّاسِ قد فضَّلْتُ خيرَ أبٍ وابنِ

فقال: عبد الملك مَن يلومني على هذا؟ وأمر له بالمال والعطايا (الأصفهاني، 2008 95/18)، ووفد رجل من بني ضبة على عبد الملك بن مروان فقال: [من الكامل]

والله ما ندري إذا ما فاتنا   طلب إليك مَن الذي نتطلبُ

فلقد ضربنا في البلاد فلم نجد   أحدًا سواك في المكارِمِ يُنْسَب

فاصبر لعادتنا التي عودتنا   أو لا فأرْشِدنا إلى مَن نذهبُ

فقال عبد الملك: إليّ إليّ! وأمر له بألف دينار ثمّ أتاه في العام المقبل فقال: [من الطويل]

يَرُبُّ الذي يأتي من الخَيرِ أنّه   إذا فَعلَ المعْروف زادَ وتمَّمَا(*)

وليسَ كبانٍ حِين تمَّ بناؤه   تَتَبَّعَه بالنَّقْضِ حتّى تَهدّمَا

فأعطاه ألفي دينار، ثمّ أتاه في العام الثالث، فقال: [من الطويل]

إذا اسْتُمطِروا كَانُوا مَغازِيرَ في الّندَى   يّجُودون بالمَعْروفِ عَوْدًا على بَدْء

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار (القالي، 2001، ص524). وشخصيته الملكية أبت واستنكرت قول الشاعر (جرير، 1986، 388/2): [من الكامل]

* - يرُبُّ: يُصلِح.

هذا ابنُ عمّي في دمشقَ خليفةً لو شِئتُ ساقَكمُ إليَّ قطينا

قال عبد الملك غاضبًا: "ما زادَ ابن المراغة على أنْ جعلني شرطيًّا" (الأصفهاني، 2008، 44/8). وكان أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء (السيوطي، 2013، ص359)، وألزم الشعراء بطقوس من نحو: براعة الاستهلال، ومراعاة الخطاب لمقتضى الحال، وعدم فساد الذوق، وقد بدا ذلك واضحًا من المحاورات والمناقشات الأدبية وآرائه النقدية المبثوثة في كتب الأدب والنقد خاصة التراثية منها والحديثة، فإذا تتبعنا آراءه في براعة الاستهلال كما أسماه النقاد من نحو موقفه من رائية الأخطل المدحية التي يقول في مطلعها (الأخطل، 1996، ص 144):

خفَّ القَطِينُ فراحُوا منكَ أو بَكَرُوا وأزعَجَتْهُم نَوًى في صَرفِها غِيَرُ

"فقال عبد الملك: بل منك إنْ شاء الله - تطيرًا" (المرزباني، 1995، ص179)، فعاد الشاعر وغير في البيت بقوله:

خفَّ القَطِينُ فراحُوا اليوم أو بَكَرُوا وأزعَجَتْهُم نَوًى في صَرفِها غِيَرُ

فأتى بلفظة (اليوم) بدلًا من لفظة (منك) التي تطيّر منها الخليفة، ومما يُروى أيضًا موقف الخليفة من مطلع ذي الرّمة الذي دخل مجلسه منشدًا وكان قد وجَّه إليه دعوة، فجِيء به إلى مجلسه، وذلك بعد ثناء جرير والفرزدق عليه، فقال له: انشدني أجود شعرك فأنشده: [من البسيط]

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ كأنّهُ مِن كُلىً مفريّةٍ سَرِبُ

وكانت عينا عبد الملك تسيلان ماء، فغضب عليه ونحّاه (المرزباني، 1995، ص279)، حتى عاد وغيّر ضمير الخطاب من المخاطب إلى المتكلم؛ لأنّ البلغاء قالوا: البلاغة مطابقة المقال لمقتضى الحال. وعاب جريرًا في قوله: [من الوافر]

أتصحو أم فؤادك غير صاحٍ عشيّةَ همَّ صحبُكَ بالرّوَاحِ

وغضب عبد الملك وقال: "بل فؤادك يا ابْن اللَّخْناء" (المرزباني، 1995، ص280)، مستقبحًا المطلع، فوقع جرير من خلال مطلعه فيما وقع فيه صاحباه الأخطل وذو الرُمة. وقول أرطاة بن سُهَيَّة منشدًا عبد الملك: [من الوافر]

وما تبغي المنية حين تأتي على نفس ابن آدَم من مَزِيدِ
و أحسبُ أنّها ستكُرُّ حتَّى تُوفِّي نذرَها بأبي الوليد

"فقال له عبد الملك: ما تقول؟ ثكلتكَ أمُّك! قال أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين" (المرزباني، 1995، ص279)، يقول ابن طباطبا (1956): " فليتجنب الشاعر هذا وما شاكله" (ص 123). ومن آرائه الدالة على توجيه الشعراء إلى ما يرغب فيه، أنّه رفض أنْ يشبه الشعراء بالحية والأسد وأنْ يقولوا فيه مثل قول الخنساء:

وما بلَغتْ كَعبُ امْرِئٍ مُتَطاولٍ بهِ المَجدُ إلّا حَيثُ ما نلْتَ أطْوَلُ
وما بَلَغَ المُهْدُونَ في القوْلِ مدحَةً ولَو أكْثَرُوا إلّا الذي فِيك أفْضَلُ

مستحسنًا معانيها، (ابن قتيبة، 1982، 1/ 483). إنّه يوجّه الشعراء إلى المعاني التي تتوافق مع الفكر بثقافته الجديدة وكذا البيئة الجديدة التي تليق بالملوك وطموحاتهم. ومن المعاني التي استحسنها وطلب من الشعراء محاكاتها قول كعب الأشقري في المهلَّب وولده (الأصفهاني، 2008، 14/ 181): [من الوافر]

بَراكَ اللهُ حينَ بَراكَ بَحرًا وفجَّرَ فيك أنهارًا غِزَارَا
بَنوكَ السَّابقُونَ إلى المَعالي إذا ما أَعْظَمَ الناسُ الخِطَارا
كأنّهُمُ نجومٌ حولَ بدْرٍ دَراريٌّ تكمّل فاستدارَا
مُلوكٌ ينزِلون بكلِّ ثَغرٍ إذا ما الهَامُ يومَ الرَّوْعِ طَارَا

رِزان في الأُمُورِ تَرى عليهم   من الشَّيخِ الشّمائلَ والنّجارا
نُجـومٌ يُهتـدَى بهـمُ إذا مـا   أخو الظّلْماءِ في الغَمَراتِ حـارا

فهذه المعاني تتوافق ورغبة عبد الملك. فنقده يقوم على أساس (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) والحال التي تعني عبد الملك هي حاله بوصفه الخليفة الحاكم، لهذا اصطبغت نقوداته بشخصيته الحاكمة، ولا ينبغي تغافل قدرته الإبداعية في نقد الشعر، لذا نجد أنّ جلّ نقوداته لاقت قبولًا واستحسانًا من النقاد بعده فأسسوا وقننوا في كثير من معاييرهم النقدية (كبراعة الاستهلال، وألا تكون المقدمة الغزلية أطول من أبيات المدح، والاستكثار من المدح والتجديد في معانيه بما يتوافق والبيئة الملكية، ويستحسن الغلو فيه، ولا بأس من ترفيه الخليفة بشعر الغزل والهجاء والخمرة، وكثيرًا ما تقوم أراؤه النقدية على الموازنة والمفاضلة بين الشعراء، وإذا نظرت في كتب النقد بعده بخاصة نقد القرن الرابع الهجري ستجد كثيرًا من أسسهم ومعاييرهم النقدية قائمة على آرائه وأحكامه النقدية.

ويعدّ عبد الملك من النقدة السباقين الذين اعتمدوا منهج الموازنة في نقدهم وذلك من خلال الموازنات التي كان يقيمها بين الشعراء، فقد طلب مرة من شعراء الغزل عمر بن أبي ربيعة وكُثَيّر عزّة وجميل بُثَيْنة أنْ يُنشدوه، فقال: أنشدوني أرق ما قلتم في الغواني فأنشده جميل: [من الطويل]

حلفت يمينًا يا بُثينة صادقًا   فإنْ كنت فيها كاذبًا فعميت
إذا كان جلدٌ غير جلدك مسّني   وباشرني دون الشعار شريت
ولو أنّ راقي الموت يرقي جنازتي   بمنطقها في الناطقين حييت

وأنشد كُثيّر عزّة: [من الكامل]

بأبِي وأمّي أنتِ من مظلـومة   طبن العدوّ لها فغـيّر حالها
لو أنّ عزة خاصمت شمس الضحى   في الحسن عند موفّقٍ لقضى لها
وسعى إليّ بصرم عـزّة نسـوةٌ   جعل المليكُ خدودهن نعالها

وأنشد ابن أبي ربيعة المخزومي القُرَشي: [من الطويل]

ألا ليت قبري يوم تقضي منيّتي   بتلك التي من بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك كلّهُ   وليت حنوطي من مشاشك والدم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي   هنا أو هنا في جنة أو جهنّمِ

فقال عبد الملك لحاجبه: اعط كل واحد منهم ألفين واعط صاحب جهنم عشرة آلاف (القالي، 2001، ص620 – 621).

كان جيدًا أنْ طلب عبد الملك من الشعراء الثلاثة إنشادهم في موضوع واحد هو الغزل؛ ليتسنى له الموازنة بين أقوالهم ثم إصدار الحكم بالأفضلية، وهذا ضرب من النقد بالموازنة، يُعد من جيد طرائق النقد، وكثيرًا ما ذهب إليه عبد الملك في نقده، مع أنّه لم يعمد إلى التعليل في أثناء مفاضلته بين نصوص الشعراء، لكنه بحد ذاته يعدّ سبقًا نوعيًّا يُحسب له في عصره. فقد أصدر عبد الملك حكمه على الشعراء، مفضّلًا عمر بن أبي ربيعة على صاحبيه؛ إذ برز ذلك في مضاعفته الجائزة لصاحب جهنم – كما وصفه – فطريقة تقسيم المكافأة للشعراء تعدّ نوعًا من النقد، وهي المفاضلة (جفّال، 1991، ص223). ولكن ترى الناقد وهو خليفة المسلمين لم يتورع في طلبه شعر الغزل وبينهم ابن أبي ربيعة المعروف بغزله الفاحش وأنّه فاسق يتعرض للنساء الحواج (ابن قتيبة، 1982، 554/2)، ثم أنّه في حكمه قال (صاحب جهنم) فلم تعد الكلمة ترعبه أو تصلح من شأنه، وهنا تستشفّ أثر البيئة المحيطة بالفرد.

الخاتمة:

يأتي تقويم الخِطاب الإبداعي بما تفرضه آليات البيئة المحيطة من ممارسات وأفكار وثقافات، فنقد الخطاب الشعري أي تمييز جيده من رديئه يتبلور في ذهن الناقد على وفق انفعاله وتفاعله به معنًى ولفظًا ومطابقته لمقتضى الحال. ونحن إذا نظرنا إلى نقد كل من الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ونقد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، نجدهما لم يلتفتا إلى علاقة الخطاب الإبداعي بالمبدع كمنتج للنص الذي هو عصارة فكره ورؤياه وتصويرًا لمشاعره، بقدر التفاتهما إلى علاقة النص بالبيئة أي مدى مطابقته لمقتضى الحال، أي مدى توافق الخطاب مع البيئة، وليست بيئة الشاعر بل بيئة الخليفتين.

- فعمر بن الخطاب ثقافته إسلامية محضة غير مختلطة بثقافات أخرى، بيئته إسلامية خالصة، ومن هنا كان ذوقه يحمل سمات هذه البيئة، وينظر إلى الخطاب الشعري من منظور ديني - أخلاقيًا كان أم اجتماعيًا - يجزي من وافق شعره التعاليم الإسلامية، ويعاقب من خالفها.
- كان عمر يحب الشعر ويتمثّله كثيرًا إلا أنّه كان يحبّ منه ما التزم الأخلاق الإسلامية، وابتعد عن الهجاء المقذع فقد عاقب على شعر الهجاء وشعر الخمرة، كما هي الحال عند الحطيئة وأبي محجن، وكذلك كان موقفه مع شعراء الغزل الفاحش، من مثل عبد بني الحسحاس.
- يهمه الصدق الواقعي والابتعاد عن الغلو، لهذا كان يفضل زهيرًا، لأنّه لا يمدح الرجل إلا بما فيه، ويعتدل في الثناء ويحرص على الاقتصاد في القول فلا يسرف ولا يغلو.
- ومن أسباب تفضيل زهيرًا؛ أنّه كان يشيد بالسلم والسلام، ويبغض الحرب، ويحذر من مغبة الأخذ بالثأر، وهذا يتوافق مع المبادئ الإسلامية التي يحث عليها عمر في الشعر.
- فنقد عمر مهما كان فنيًّا تجده يقوم على أساس ديني.

أما عبد الملك بن مروان فبيئته تجدها في البيتين الآتيين اللذين تمثلهما لما حضره الموتُ؛ إذ قال: [من الطويل]

لعَمْري لقدْ عُمِّرْتُ في المُلْكِ بُرْهةً ... ودَانتْ ليَ الدُّنيا بوقْعِ البَواتِرِ
وأُعْطِيْتُ جَمَّ المالِ والحكمَ والنُّهى ... ودانَ قَماقِيمُ الملوكِ الجبابرِ

- هذه هي بيئة عبد الملك بيئة الملوك، لهذا أنكر قول جرير (لو شئت ساقكم إليّ قطينا) فهو ملك الملوك وليس شرطيًّا عند أحد، وكما ورد في الأبيات السابقة، فهو حافظ على ملكه بقوة السيوف البواتر. لهذا كان تقويم الخطاب عنده يقوم على أساس مراعاته لما تقتضيه حال الخليفة أو الملك.
- لا يراعي الصدق والكذب قدر مراعاته المعاني التي تليق بالملوك.
- وجّه الشعراء إلى مراعاة جودة الاستهلال، وعدم فساد الذوق، فيما يخص مخاطبة الملوك، فآراؤه النقدية تنصب في كيفية توجيه الخطاب إلى الملك؛ إذ ألزم الشعراء بصيغ خاصة في حضرة الملوك.
- كان يستكثر من المدح، ويجزي من يمدحه بكثير من العطايا والهبات فنشط غرض المدح.
- كان يستنشد شعر الغزل والخمرة ويثني على صاحبهما.

كلا الخليفتين اعتمدا الحكم الذاتي المعتمد على الفطرة والذوق الخاص، وذلك أنّ حكمهما كان يعتمد على قراءة البيت الواحد، وانفعالهما به، بحسب بيئة كل منهما وثقافته، ومع ذلك فقد رفدا النقد العربي؛ إذ وضعا الأسس الأولى لبعض المعايير النقدية التي كانت سندًا اتكأ عليها نقاد العرب بعدهما وبخاصة نقاد القرن الرابع الهجري، وقد أثارت جدلًا كبيرًا بينهم، من تلك المعايير:

- الصدق الواقعي، والبعد عن الإغراب، والمعاضلة، والتقسيم، وجودة المعني بحسب ملاءمته للمعاني الإسلامية، هذا ما أفرزه نقد ابن الخطاب، ومما يحسب له قوله في المعاضلة معللًا سبب تفضيله الشاعر زهيرًا.
- أما نقد عبد الملك فقد أفرز: ضرورة مراعاة الشاعر لبراعة الاستهلال، وسياقات القصيدة المدحية، ومطابقة الخطاب لمقتضى الحال، وابتكار المعاني وتوليدها كالتجديد في التشبيه، ومما يحسب له أنّه اتبع طرق الموازنة بين معاني الشعراء.

المصادر والمراجع:

1- إبراهيم، طه، (2004)، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

2- ابن أبي سُلمى، زهير، (1980)، شعر زهير بن أبي سُلمى، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الافاق الجديدة، ط3، بيروت.

3- ابن الرومي، أبو الحسن، (2003)، ديوان ابن الرومي، تحقيق: د. حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، ط3، القاهرة.

4- ابن طباطبا، محمد، (1956)، عيار الشعر، تحقيق وتعليق: د.طه الجابري، ود. زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

5- ابن قتيبة، أبو محمد، (1982)، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.

6- ابن المعتز، عبد الله، (2016)، ديوان عبد الله بن المعتز، تح: د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

7- أبو نواس، الحسن، (1997)، ديوان أبي نواس، تحقيق: علي العسيلي، مؤسسة النور، ط1، بيروت.

8- الأخطل، أبو مالك، (1996)، شعر الأخطل، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الفكر، ط4، دمشق.

9- الأصفهاني، أبو الفرج، (2008)، كتاب الأغاني، تحقيق: د. إحسان عباس، د. إبراهيم السّعافين، أ. بكر عباس، دار صادر، ط3، بيروت.

10- الأندلسي، ابن عبدربه، (1983)، العقد الفريد، تحقيق: د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

11- جرير، ابن عطية، (1986)، ديوان جرير، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة.

12- جفّال، خليل، (1991)، الخليفة عبد الملك بن مروان الناقد الأديب، دار النضال، ط1، بيروت.

13- الجمحي، محمد، (1980)، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

14- الحطيئة، جرول، (1993)، ديوان الحطيئة، دراسة وتبويب: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

15- الدمشقي، عماد الدين، (1999)، البداية والنهاية، تحقيق: د. عبد الله عبد المحسن التركي، هجر، ط1، الجيزة.

16- السيوطي، جلال الدين، (2013)، تاريخ الخلفاء، إعداد: اللجنة العلمية مركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، إشراف محمد غسان الحسيني، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط2، قطر.

17- الشايب، أحمد، (1973)، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط8، القاهرة.

18- الضَّبِّي، المُفضّل، (2010)، المفضليات، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، ط10، القاهرة.

19- الضُّبعي، المتلمس، (1970)، ديوان المتلمس الضبعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، ط2، القاهرة.

20- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة.

21- العسكري، أبو هلال، (2006)، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1، بيروت.

22- عمارة، السيد، (2007)، دراسات في النقد الأدبي القديم، مكتبة الرشيد، بيروت.

23- القالي، أبو علي، (2001)، كتاب الأمالي، تحقيق: صلاح الدين بن فتحي هلل، وسيد بن عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت.

24- قدامة، أبو الفرج، (2006)، نقد الشعر، تح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، القاهرة.

25- القيرواني، ابن رشيق، (2007)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت.

26- المرزباني، أبو عبد الله، (1995)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.

27- النويري، شهاب الدين، (2004)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: يحي الشامي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.